التقديم :

https://nidaulhind.blogspot.com

مدونة علمية دعوية فكرية

(راجيا دعائكم)



آثار الاسلام الثقافية فى الهند

لقد تطورت الحضارة الهندية الحديثة نتيجة أعمال كثير من العناصر والمذاهب وتفاعلها معا بحيث يصعب كثيراً القول لأى مظاهرها كان من جراء أثر بالذات. ولعل أصعها جميعاً فى التقدير هو الاسلام، إد أن مختلف غزوات المسلمين فى الهند أتت بأناس قلائل نسبياً من عنصر غريب إلى الهند. وحتى عندما قر رأى «بابر» العظيم واستعد لغزو الهند فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٥٢٥، وهو فى كابول، لم يأخذ معه سوى ١٢،٠٠٠ من المحاربين والتجار. فان الأغلبية العظمى من الثمانين مليون مسلم أو أكثر فى القارة الهندية الذين يشكلون اليوم ربع السكان ينحدرون من أصل هندوسى. ويحتفظون بمميزات معينة عامة بالنسبة للهنود كمجموع. ومع ذلك فان المسلمين إذ جاؤا فاتحين وحكاماً وبعثات تبشير قد تركوا فى الهند وخاصة فى الشمال منها أثراً كهذا حتى أنه ليتراءى لكثيرين من الأوربيين والأمريكيين أن طريقة المعيشة وفن البناء فى الهند لا بد وتكون إسلامية.

إن الثقافة الاسلامية فى الهند بجمعها بين حضارتين قد أدت دوراً خاصاً إلى العالم الغربى ولبقية العالم الاسلامى. ولقد كان لعملية الجمع بين حضارتين أهمية خاصة طريفة، وهناك فقرة فى مؤلف السير جون مارشال «تاريخ الهند» تصف جيداً تأثير الثقافتين الاسلامية والهندوسية الواحدة على الأخرى، فيقول: «إن صلة الاسلام الأولى بالهند بدأت فى النصف الثانى من القرن السابع وبداية القرن الثامن من عهد المسيحية عن طريق السند وبلوخستان، فان العرب الذين فتحوا السند وظلوا هناك قد تركوا أثرا مستديما على عادات الناس وطبائعهم. وجاء فيما بعد سيل آخر من المسلمين إلى الهند عن طريق الحدود الشمالية الغربية. وكان عنصرهم

وثقافتهم مختلفا عن الغزاة العرب الذين أتوا إلى الساحل الغربى. فان ممثلى مختلف القبائل والسلالات فى آسيا الوسطى الذين استشعروا سحر الاسلام واعتنقوا العقيدة بدأوا بسلسلة طويلة من الغزوات فى الهند. ويتضح على أى حال أن غزوات كالتى جردها تيمورلنك ومحمود الغزنوى لم تكن ليحسب لها أن تؤتى ثمرات ثقافية ملموسة أو لتترك آثاراً كثيرة دائمة لعوزهـا. إن هذه الصلات لم تدم طويلا ولم تهيىء فرص إقامة علاقات وثيقة بين سكان البلد والزوار غير المرغوب فيهم من الشمال بل بدأت الاتصـالات الحقيقية عنـدما بدأ المسلمون يستوطنون فى البلاد على أنها موطنهم الثانى.

لقد سبقت عدة سلالات من ملوك المسلمين تاسيس امبراطورية المغول فى الهنـد، ولا شك أنها ساهمت كثيراً فى تطعيم حضارة البلاد القديمة بالثقافة الاسلامية، ولـكن المادة المتوفرة ضئيلة جـداً لوضع تقدير محدد للنصيب الذى قدمته. ولا بد من حصر الاهتمام بصورة رئيسية بالعهد المغولى الذى كان أكثر ما ساهم فى تنمية الثقافـة الهندية — الإسلامية.

إن بعض آثار النفوذ التى أتت إلى الهند عن طريق المسلمين ربما لا تكون من عناصر الاسلام الأساسية عـدما نبتت فى الأصل فى شبه الجزيرة العربية، ولكنها أصبحت تقرن بها على مر الأيام إبتـــداء من زحفها من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس وآسيا الوسطى. وكان لايران من بين هذه البلدان أثر غالب على الاسلام وعن طريقها على الهنـــد. فلقد فتح العرب بلاد فارس، ولـكن الحضارة الفارسية تركت أثراً عميقا عليهم حتى أن الآداب واللغة الفارسية أضحت جزءاً ضرورياً من الثقافة الاسلامية فى كثير من الأراضى الشرقية. إن سلالات آسيا الوسطى التى أتت إلى الهند وأسست ممالك فيها قد جاءت متأثرة بالأدب الفارسى قبل أن تصل إلى الهند، وكانت النتيجة أنهم اتخذوا الفارسية لغة

البلاط والأدب . وفى عهد المغول أقبل المسلمون وغير المسلمين على تعلم اللغة الفارسية بشغف . والهندوس بما لديهم من مقدرة فائقة على الاقتباس فى الشؤون الفكرية ، استساغوا الأدب الفارسى تماما كما هم مقبلون الآن بشوق على دراسة اللغة الانجليزية وآدابها ، وقد أخرجت مناطق الهند الشمالية أمثلة كثيرة لامعة لأساتذة هندوس فى الفارسية تمكنوا من اتقان اللغة فى النثر والشعر على السواء . وقد امتازت طبقتان من الهندوس بصفة خاصة فى هذا الميدان وهما طبقة الكشميريين الملقبين باسم بانديت ، وطبقة الكائستا . وقد نشر مؤخراً مؤلف ضخم يتضمن مختارات من الأشعار الفارسية نظمها أساتذة من كشمير .

ولقد كان أفضل أثر لفكرة الاسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس فى تلك الحقبة من الزمن هو عن طريق الفارسية كواسطة تفاهم تأثرت هى الأخرى بدورها إلى حد كبير باللغة العربية وكتب التعاليم المقدسة التى ظهرت فى عهد الاسلام . والنتيجة العظمى لهذا الأثر النمو التدريجى للاعتقاد المتسع فى وحدانية الله ونمو العقائد التوحيدية المحلية . والنتيجة الثانية البارزة هى خلق لغة محلية جديدة سميت « الأردية » وهى مزيج من الفارسية والهندية والتى أصبحت على مر الزمن أكثر لغة شائعة الاستعمال فى الهند .

لقد كان لهذين النفوذين آثار بعيدة المدى فى الماضى ، ولهما إمكانيات هائلة فى المستقبل ، ولهذا يتطلبان بحثا مطولا . أما الآثار الأخرى فهى أكثر من أن تسرد بالتفصيل إذ أنها تشمل دائرة بالغة الاتساع . فانت تراها فى طراز المبانى والبيوت وفى الموسيقى ، والرسم ، والحروف ، والفنون ، وفى الهندام ، والألقاب ، والرياضة وبالاختصار فى حياة البلاد بأسرها . . . وعلينا الاقتناع باشارات عابرة إلى هذه التذكارات من الامتزاج السعيد لثقافتين اختارت ينابيعهما منذ أمد بعيد سلوك طريق مشترك .

فلنلق أولا نظرة على الفكرة الدينية . وأنا لواجدون أغلبـية عظمى من المثقفين فى الهند، وحتى غير المسلمين، يؤمنون باله واحد مبدع الكون وحافظه لا ند ولا شريك له، ومع أن هـذا الاعتقاد موحود فى جميع الأديان العظمى فى الـعالم عـلى الأغلب فى شكل من الأشكال، فلا يمكن الانكار أنه ليس ثمـة عقيـدة أخرى أعطته حقه من التوكيد كما فعل الاسلام . وعلينـا أن نذكر أن أنظمة المعتقـدات السائدة بين الهندوس أبان ظهور المسلمين قد انحرفت بعيداً إلى حـد كبير من نقاء المذاهب الأصلى فى الكتب المقدسة القديمة، واستفيض عنها بأشكال وثنية مختلفة للعبادة . وقد تبدلت الأمور الآن كثيراً حتى أنه رغم احتفاظ الهندوس المستقيمين حتى اليوم بأوثان فى معابدهم فان نظرتهم إلى عبادة الأوثان تختلف كليـــة عما كانت عليه من قبل . فان المتعـلم والواعى منهم يصرح أن الأصنام يقصد منها فقط أن تكون عونا على تركيز الفكر، وأن أولئك الذين يتراءى لهم أنهم يعبدونهـا، هم فى الحقيقة يعبدون الخالق الذى يستحق العبادة وحده . وفى هذه الحالة المتبدلة كثيراً يمكن تتبع أثر الاسلام بسهولة، مع أن أثر المسيحية فى الأزمنة الحديثة كان قوة عظيمة أخرى تعمل ضد الخرافات وعبادة الأوثان . ومما يجدر ذكره أيضا أن قوى برزت داخل الهندوسية نفسها لمقاومة الميل إلى عبادة الأصنام أو الانقياد للكهـنة ذوى الطرق . فان مؤسسة « آرياسماج » التى أنشأها المرحوم « سوامى دايا نندا سارسواتى » فى النصاف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمكن ذكرها، عـلى أنها أكبر مثال على خروج الهندوسية على عبادة الأوثان . وهذه الحركة تشير إلى إحياء العقيدة الفيدية القديمة . ومع أنها تتخذ أحيانا موقف المحارب نحو الاسلام كى تقف أمام نفوذه، غير أنه من الجلى أن بعض اصلاحاتها تسير على أسس موازية لتعاليم الاسلام . فهى فضلا عن استنكارها عبادة الأصنام تنكر الكهنة وتسمح لأتباع الديانات الأخرى باعتناق مذهب « آريه » وتوصى بتزوج الأرامل، الأمور التى لا تبيحها الهندوسية .

وفضلا عن مدلول هذه الأفكار الاسلامية التى أثرت تدريجيا وبصورة غير منظورة على أنواع الفكرة الدينية فى الهند، فان الاسلام كان له تأثير مباشر فى إيجاد نظم العقيدة التوحيدية فى الهند، فالديانة السيخية التى أسسها القديس «كورو ناناك» هى مثال نادر لهذا التأثير. فقد آمن هذا القديس بوحدانية الله بنفس القوة التى يؤمن بها أى مسلم ورغب فى تلطيف الخلافات بين الهندوسية والاسلام. وكتاب السيخ المقدس «كرانت صاحب» يحمل شاهداً على أن مؤسس الديانة أحب الله وأحب أقرانه الرجال وخص النبى العربى وآخرين من أئمة المسلمين باحترام عظيم وقد نشر شخص سيخى معروف يدعى سردار «ام راو سنج» فى الآونة الأخيرة كتاباً يدل بوضوح على معتقدات المسلمين والسيخ الأساسية كثيرة الشبه الواحدة إلى الأخرى. وهذا الكتاب هو ترجمة فارسية لمؤلف «سوكانى» وهو جزء من كتاب السيخ المقدس. وكل مقطع فيه ينص بمحبة الله وقد عثر سردار «ام راو سنج» لحسن الحظ على المخطوط الفارسى لهذا الكتاب فى المكتبة الوطنية فى باريس ونسخها. وقد حمل النسخة إلى الهند وتعب كثيرا فى مقارنة الترجمة بالأصل وتحريرها بعناية. ومن سوء الحظ جداً أن السيخ والمسلمين نظراً لقلة احاطتهم التامة وعدم تقديرهم بمعتقدات بعضهم قد ابتعدوا كثيراً الواحد عن الآخر.

وثمة شاعر دينى آخر عظيم يجدر ذكره فى هذا الصدد يسمى «كبير» فكان خير مبشر للحركة المعروفة باسم «بهكتى» فان هذه الحركة كما ذكر أحد الكتاب حديثا لا ترى فرقا بين «رام» ورحيم، وبين الكعبة و«كيلاش»، وبين القرآن و«پوران». وتوصلت إلى أن كارما (العمل الصالح) هى دهارما (الدين). وأن مبشرى هذا المذهب، وهم راماناندا، وكبير، ودادو، ورامداس، وناناك، وشيتانيا، الذين اشتهروا فى مختلف أنحاء الهند وبشروا بمبادىء وحدانية الله كانوا متأثرين

إلى حد كبير بالاسلام. ثم إن «كبير» نفسه كان ابنا لوالدين مسلمين.

اللغة والأدب والفن

إن اللغة الأردية هى برهان آخر على وحدة الثقافتين الاسلامية والهندوسية مع أنه غريب وجود ميل فى بعض الأوساط للنظر إليها كشىء مستورد من الخارج يمكن التخلص منها على أنها لغة أجنبية. وهذا الرأى الخاطئ هو نتيجة لقلة المعلومات عن منشأ اللغة وأصول تطورها ومما يبعث على السرور أن نلاحظ اعترافا متزايداً بقيمتها حتى فى مناطق تسود فيها لغات إقليمية، والفقرة التالية التى نقتطفها من مقالة كتبها السيد «ايل تشاندرا نارجى» حول الأدب الهندى ـ الفارسى والمساهمة التى أداها إليه الشاعر الشهير «أمير خسرو» من دلهى تتضمن رأى كاتب هندوسى منصف بالنسبة لمكانة اللغة الأردية فى ثقافة هذا القطر فيقول: «إن كل انتاج على الأغلب فى الأدب الهندى ـ الفارسى يشمل عدداً كبيراً من الكلمات الهندية الأصل وآلاف كلمات فارسية أصبحت من صلب كل لغة محلية هندية. إن هذا التمازج بين الأفكار والكلمات الفارسية والعربية والتركية مع اللغات والمعتقدات السنسكريتية الأصل شىء ممتع حقا من وجهة النظر الفلسفية، وهذا التناسق غير المعروف ساهم فى أصل اللغة الأردية الجميلة. وتلك اللغة فى حد ذاتها ترمز إلى التوفيق بين أنواع الحضارات المتعادية التى لم يتم توافقها حتى الآن والتى تتمثل فى الهندوسية والاسلام».

وهكذا فان اللغة التى نشأت بجهود المسلمين والهندوسيين مجتمعة تفتخر الآن بادب واسع وحافل نوعاً ما، يمكن اعتباره تراثا عاما لكليهما، وهو يكتسب فى كل يوم قوة وأهمية.

إن أدب الأردية غنى فى الشعر، ولا بد من الاعتراف فى أى حال أن الشعر بالأردية محصور إلى حد كبير ضمن نطاقه فى الماضى، وأن الجهود تبذل فى

الآونة الأخيرة فقط لتوسيع ميدانه. فقد كان «الغزل» هو أشهر أبوابه ويتألف من أفكار عابرة شاردة عن مواضيع كهذه مثل الحب والجمال والآداب. وكان كل «بيت» بنفس الوزن ونهايتها متسقة الواحد مع الآخر. وقد وجد هذا الطراز من الكتابة تعلقا كبيرا به بين المسلمين وكذلك الهندوس. وإنك لتجد فى قصائد الغزل فى دواوين كثيرين من الأدباء البارزين دررا أدبية تقارن بأفضل انتاج أدبى فى لغات أخرى مع أن الجزء الأعظم من هذا النوع من الشعر لا يمكن أن يصح مثالا. ومن ثم أدرك بعض شعراء النصف الثانى من القرن التاسع عشر الذين تفهموا حدود الغزل وعيوبه، الحاجة إلى إصلاح أدبى. وفى دلهى كان الشاعر «غالب» أول من أدرك هذا، ولكن الحظ حالف تلميذه النجيب «حالى» كى يبدأ بالاصلاح. فأنشأ مدرسة جديدة فى الأشعار الأردية كان لها أتباع كثيرون بين معاصريه ومن خلفوه. وفى لكناو ابتعد الشاعران العظيمان «انيس» و«دبير» عن الأسلوب العادى فى الشعر فكتبا رثاء عن استشهاد الامام حسين. وقد أضاف انيس ودبير ثروة طائلة إلى أدب الأردية وصقلوا اللغة الأردية إلى حد عظيم. ومن الشائق أن نلاحظ أن هذين الشاعرين البارزين لم تكن عظمتهما كشاعرين فقط بل لما أيضا للاثر البديع الذى تركاه من انتاجهما. فقد جعلا من الانشاد فنا كان حتى ذلك الحين تقليدا، ولكنه لم يصل حد الابداع حتى الآن فى الهند. وقد اعتاد الهندوس والمسلمون من جميع الطبقات التجمع بأعداد هائلة للاستماع إلى أشعارهما وهذا أدخل الوفاق الثقافى بين الطائفتين ولا تزال حتى الآن متعة. والأثر الملحوظ لهذا النوع من الأدب أن كبار الكتاب الهندوسيين اقتبسوا أسلوب الرثاء لتصوير قصص «الرامايانا» الساحرة فيما يتصل بتضحيات البطل «راما» حين قام بواجبه الورع، وحبه الخالص لأخيه «لكشمن» و«سيتا» زوجته. إن جاوالا برشاد وبانديت بريج نارايان هما بين الكتاب الهندوس الذين أتقنوا استعمال أسلوب الرثاء الذى إبتدعه الشاعران

الكبيران المذكوران. إن هذه الاشارة إلى مدرسة أدب الأردية فى لكناؤ لن تكمل بدون ذكر « فسانه آزاد » وهو من القصص الخيالى الرائع فى الأردية كتبه المرحوم بانديت راتان ناث الذى يحتل مكانة فريدة بين الكتاب الناشرين فى الأردية. فقد أعطى صوراً دقيقة لحياة الغنى والفقير فى لكناؤ. وفى كتابه هذا وكذلك فى كثير من مؤلفاته الأخرى يظهر بوضوح أثر الأدب الاسلامى الذى توسع فى قراءته.

إن التنافس بالأشعار وإلقاء القصائد هو من مظاهر الأدب المعروف لدى المسلمين فى الهند، وهذه المسابقات فى الأشعار، وتسمى « مشاعرة » تعقد عادة للحكم على المتفوق فى نظم قصائد الغزل فى قافية معينة. ويلقى الشعراء المشتركون فى المباراة قصائد من نظمهم. وليست العادة المألوفة فى المباريات الشعرية بين الطبقة العليا أن يعلن المجتمعون أو الرئيس من الذى كسب جائزة السبق، بل أن الجمهور فى معظم الأحوال لا يترك فى شك حول أفضل قصيدة، إذ يظهر الاتجاه فى الرأى من الأعجاب الذى يبديه عالياً المستمعون أو من تعابير الاستحسان التى يفوه بها من هم فى مركز على إصدار حكم فى معرض إلقاء القصائد. ومع أن هذه المظاهرات الأدبية لا تتميز بالبهرجة التى تمتعت بها فى الأيام الخوالى، غير أنها لا تزال شائعة نوعا ما، وغالبا تجمع معا أناسا من مختلف الطبقات والطوائف ممن يستطيعون نسيان خلافاتهم موقتا فى إعجابهم بالأدب العام.

فن البناء

أما فن البناء فكان من فروع الفن دائما أشد ما اجتذب اهتمام المسلمين. وإن رسم الأشخاص والحيوان كان موضع عدم التشجيع على أساس دينى خلال الفترة الأولى من الهداية والتوسع الاسلامى، ودام ذلك قرونا عديدة فيما بعد. ففى الهند كان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين

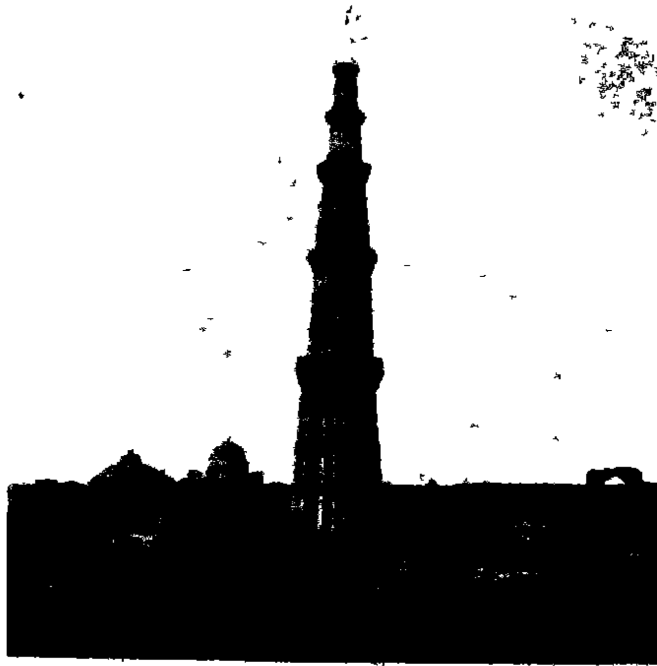


احمير : المسجد الكبير
سنة ١٢٠٠ م .

الأوائل، وهذا فتح آفاقاً واسعة لأولئك الصانعين الذين قدموا من أنحاء أخرى فى آسيا، وكذلك لأصحاب الحرف المحليين الذين عملوا تحت إشراف المسلمين وإلهامهم. وقد وجدوا مخرجاً لنبوغهم الفنى فى رسم الأشكال البديعة على الجدران بالأحرف والأجسام وتنمية التناسق والتناسب فى الأبنية، وهكذا أصبحت الأضرحة والمساجد وحيا للصانعين فى كل شكل من الفن. وقد وفدوا من كل جزء من البلاد ليأخذوا صور هذه المبانى وقد نسخت رسوم الأزهار التى زينت جدران هذه المبانى ونقلت للتطريز والمنسوجات. وليس فى الامكان تقدير المدى الهائل لقيمة تلك المبانى التعليمية فى تكوين الأذواق وتنميتها ومستوى فن النحت وصقل ملكة الخيال لدى ملايين الهنود فى جميع أنحاء شمال الهند والبنغال والدكن، إن كان المجتمع الهندى يتجه نحو جعل الانتاج الفنى معتمدا على الرعاية المستمرة من قبل الحكام وكبار الموسرين. وهذه الرعاية تمكن المغول وإلى مدى أقل الحكام المسلمون الأوائل من تهيئتها. فلم يأتوا فقط بأفكار جديدة بل جاؤا أيضا بدافع [illegible] الهند [illegible] من كتاب العصر الجديد أهمية كبيرة فى

مؤلفه « تاريخ إمبراطورية المغول » على نفوذ الأباطرة على ندمائهم ومنهم على الهند بأسرها. وقد عرض « بابر » ذوقا رفيعا فى الرسم، ويقال انه أحضر إلى الهند معه تحفا مختارة من الرسوم التى استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك. وقد نقل بعضها إلى إيران نادر شاه بعد غزوه الهند واحتلاله دلهى، ولكنها طيلة بقائها فى الهند تركت أثراً عظيما وخلقت دافعاً جديداً لفن الرسم فى الهند.

ولكن « بابر » كما نعلم لم يعمر طويلا كى ينفذ مشروعاته لأعمار الهند، وكذلك كان حكم ابنه همايون أيضا غير مستتب نوعا ما. وترك لجلال الدين أكبر، حفيد بابر ان يوصل إلى حد الاتقان الولع بالفن الذى ورثه. وبرهن على أنه راعية عظيم للفن فى كل فروعه. وروى أبو الفضل وزير أكبر المعروف أن الامبراطور كان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقة للقصور الملكية وكل منها كمدينة. وقد كتب السيد عبد العزيز من الكتاب المعاصرين فى مؤلفه عن حكم



دلهى: قطب منار

الامبراطور أكبر يقول: «لقـــد بنى مصنعا قرب القصر حيث كان كذلك استوديوهات وعرف خاصة للفنون الأرفع وأكثر شهرة، مثل الرسم والصياغة وصناعات الأقمشة المزركشة والسجاجيد والستائر والأسلحة. وهنا كان يتردد كثيراً ويترك العنان لعقله بمراقبة أعمال الذين يمارسون تلك الفنون».

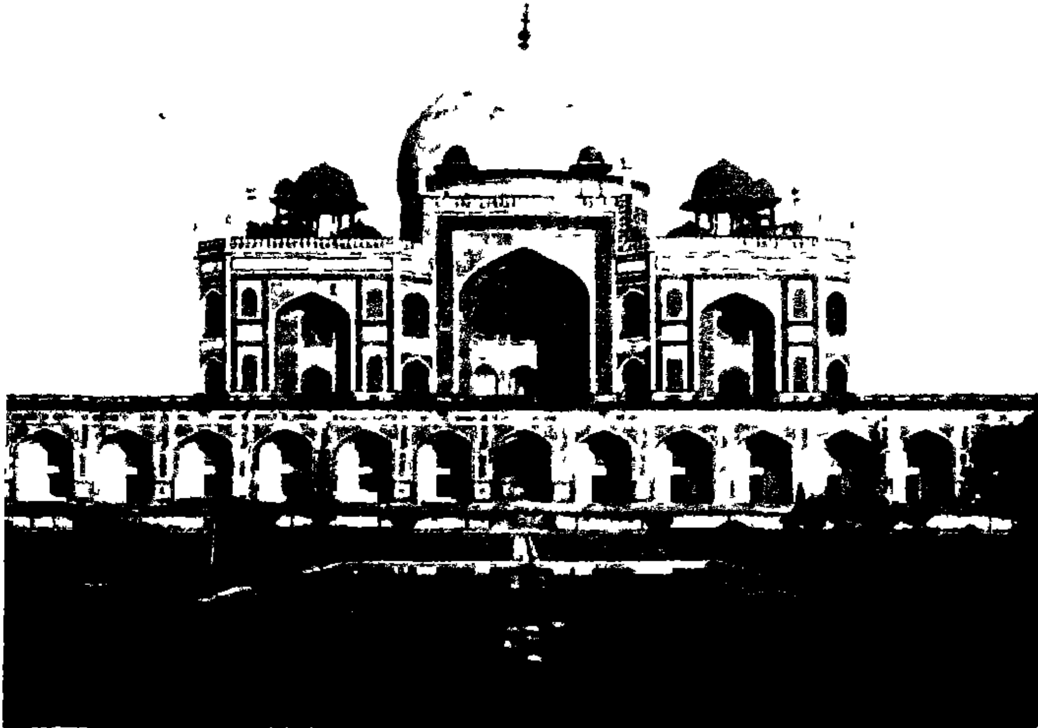
وقد حذا حذو الامبراطور أكبر فى رعايته للفنون ابنه «جهانگير» الذى كان هو نفسه مولعا بالرسم، وشاهجهان كان أيضا رجل فن فقـــد شجع اهتمامه الشخصى ندماءه أن يقلدوه، وهكذا تغلغل نفوذهم إلى أولئك الذين كانوا على صلة بهم وكان هذا الميل قويا بصفة خاصة بين النبلاء فى بلاط المغول الذين كانوا بمثابة وكالة تنتقل منهم المثل العليا فى الرسم والآداب والعادات إلى الطبقات الدنيا، فكان الناس على دين ملوكهم فى عاداتهم وطباعهم وأفكارهم وميولهم وأذواقهم كما قال الكاتب عبد العزيز نقلا عن كتاب «الأب مونسيرات».

إن مميزات الرسم وخصائصه تحت رعاية المسلمين خلال عهـد المغول كانت موضوعاً لعدة رسائل ومقالات، وقد بحثت قيمتها كعون للتاريخ فى محاضرة ألقاها السير توماس ارنولد أمام جمعيـة الفنون الملكية ويوجد عدد كبير من النماذج البديعـــة فى مختلف المتاحف الأوربية وفى المكتب الهندى بلندن والمتحف البريطانى وبودليان فى اكسفورد تحف بديعة نادرة للفن يصعب على العـالم العربى اعطاءها حقها من التقدير، البالغ الروعة.

ويتصل فن الرسم اتصالا وثيقا فى تزيين الكتب. وهذا لقى تشجيعا كبيراً تحت تأثير الاسلام فى الهـــــد. فان المسلمين الذين استطاعوا ذلك رغبوا فى زخرفة القرآن الكريم ومخطوطات دينية أخرى أو كتب الأدب القديم بحواشى ذهبية على كل صفحة وتجليد الكتب وزخرفتها بالذهب. وقد اقتبس ذوق اقتناء كتب كهذه الهندوس أيضا. فان الفنانين من كلا الطائفتين وجدوا لذة وربحاً

من تزيين الكتب العربية والفارسية والسنسكريتية .

أما بصدد موضوع المخطوطات اليدوية فيمكن القول أن المسلمين هم الذين أحضروا الورق إلى الهند . وكان هذا مساهمة هامة جداً فى تقدم العلم والمعرفة . ويبدو أن صنع الورق جاء فى الأصل من الصين إلى آسيا الوسطى . وكانت له صناعة هائلة فى سمرقند ومن هناك أتى الورق إلى الهند .

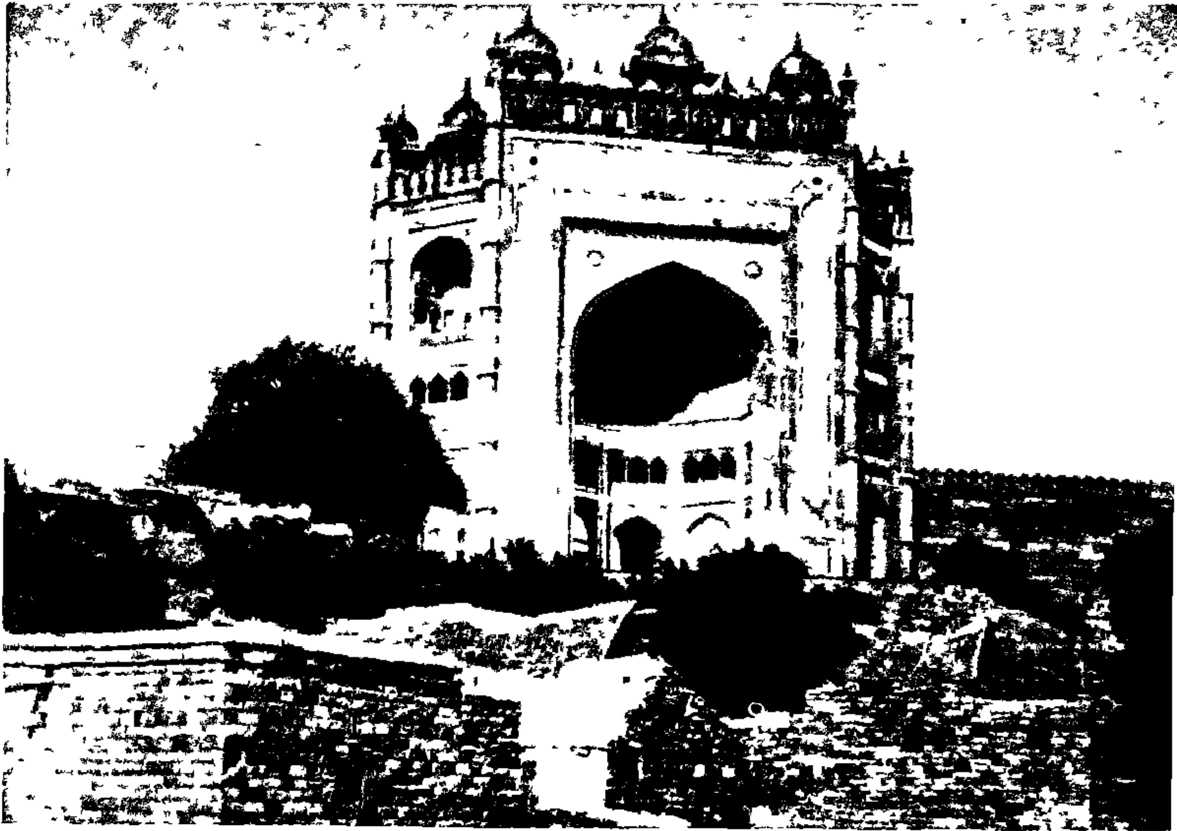


دلهى : مقبرة همايون
سنة ١٥٦٥ م

ويمكننا الآن دراسة القسط الذى ساهم به المسلمون فى فرع آخر من الفن ونعنى به الموسيقى . والموسيقى الهندية كما أشار السيد جعفر فى مؤلفه « تاريخ إمبراطورية المغول » هى مثل فنون رفيعة أخرى برهنت على وجود مسلك جديد من التشابك بين الهندوس والمسلمين . فان عملية التعاون والتمازج لم تكن

شيئاً جديداً فى عهد الامبراطور « أكبر »، إذ بدأت قبل ذلك بقرون. وفى ميدان الموسيقى أصبح ملموساً كيف كانت الطائفتان تقترضان من بعضهما القسط الثمين الذى ملكتاه فى هذا الفن، وبهذا أضافتا الواحدة إلى ثروة الأخرى. فان « الخيال » مثلا الذى ابتدعه سلطان حسين شاه من بلور أصبح جزءاً هاما من موسيقى الهندوس. ومن جهة أخرى دخلت « دروبود » نفسها فى الموسيقى الاسلامية ويروى لنا أبو الفضل أن الامبراطور « أكبر » كرس عناية فائقة للموسيقى ورعى أولئك الذين مارسوا هذا الفن والملحوظ أنه وإن كان هذا الفن لم يشجع مثل الرسم فى أول عهد الاسلام، إلا أن اتصال الاسلام بايران أحدث تبدلا فى نظرة المسلمين إليه وعلى الأخص تحت تأثير الصوفية الذين آمنوا بأثر الموسيقى كوسيلة للسمو بالروح وكعون للتقدم الروحى. ولقد أصبح هذا الاتجاه أكثر وضوحا عندما وجد المسلمون الذين استوطنوا الهند أن الهندوس أبناء بلادهم كانوا مغرمين بالموسيقى وأنهم استعملوها فى مراسيمهم الدينية.

وكانت النتيجة أنه رغم استمرار العادة فى المساجد على الأساس الذى درجت عليه دون أى عوامل مساعدة خارجية كالغناء أو العزف على أدوات موسيقية، فان الموسيقى أصبحت أكثر شيوعا بين المسلمين فى الهند. إن ولع الأغنياء بها جعلتها تسلية محبة حتى أنه أضحى من الشائع إقامة حفلات موسيقية فى كافة مناسبات الاحتفال والأعياد. ثم أن إقبال الصوفيين على الموسيقى أوجد عادة إقامة الاحتفالات شبه الدينية والاجتماعات لسماع أغانى المحبة السماوية يشدها مغنون محترفون. وتعرف طبقة هؤلاء المغنيين باسم «القوّالين» وأطلق على الالحان والأغانى اسم « قوالى » وأصبحت جد شائعة. وهكذا استحدث المسلمون عدداً من الأدوات الموسيقية الجديدة أو أطلقوا على بعضها أسماء فارسية حسب ما تدل أشكالها. والأمثلة على ذلك الرباب والسارود والطوس ودلروبا.



بلند دروازه (الباب العالى) فى فتحپور سيكرى
سنة ١٥٧٥ م

الحـــدائق

إن حـدائق المغول فى الجزء الشمالى من الهـد معروفة جيداً فى أوربا كما اشتهرت مبانى المغول . فقـــد أدخل العرب قبل ذلك بعدة قرون إلى جنوب أسبانيا فكرة تنظيم الحدائق وإعدادها كمكان يجد فيه المرء راحة وجمالا ومتعة وحماية من حر النهار . وانسياب المياه كان مطهراً ضروريا ليس لرى المزروعات والشجيرات فحسب بل لخلق جو البرودة وفى السهول إيجاد صورة الينابيع الجبلية . وترجع هذه الفكرة ذاتها فى الأصل إلى المغول كما هى بالنسبة للمراكشيين ، ولا شك أن إعادة كشف هذه الحدائق فى شمال الهند كان لها تأثير على إيطاليا وإنجلترا .

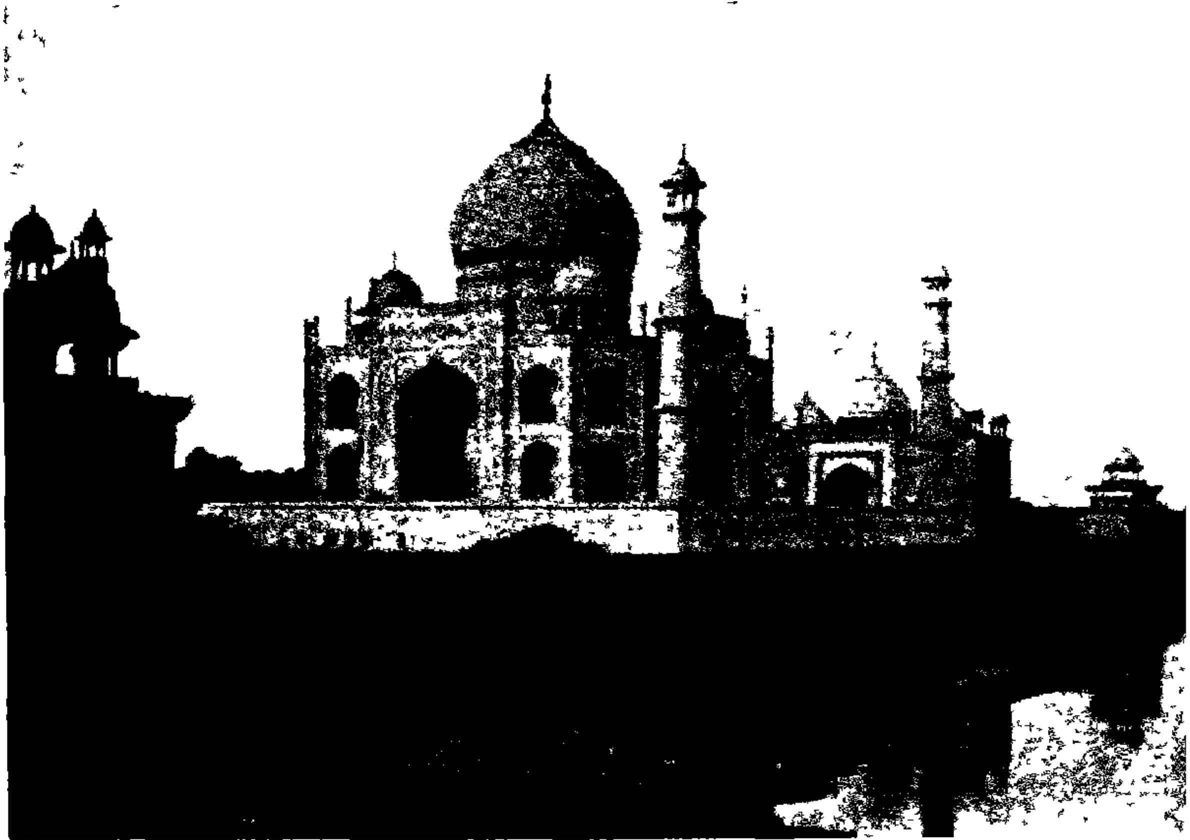
وطبيعى أن المغول أحسوا أحساساً عميقاً بالجمال الطبيعى وهزهم نوع من

الحنين فى سهول السحاب الخافقة القاحلة قبل أن تحل الأيام التى انتشرت فيها وسائل الرى وتساعد على تلطيف السأم منها. وحدث احيانا أنهم كانوا يذهبون إلى أماكن بعيدة سعيا وراء الجمال الطبيعى متحملين مصاعب جمة ونفقات فى سبيل ذلك، وفى غيرها كانوا يتكبدون حتى مشاق أكثر ونفقات لاحضار جمال الطبيعة إلى أماكن لم تكن موجودة فيها من قبل.

ومن الطريف أن نقرأ فى رسائل كتبها أبو الفضل قصة رحلة الامبراطور «أكبر» من «آگرا» إلى كشمير كى يمتع الطرف بالمناظر الخلابة وجوء الوادى الساحر. ويروى لنا أنه اعتاد الذهاب هناك فترة الصيف يرافقه ندماؤه وجنوده وكان من عادته أن يسلك طريقا جديداً فى كل مرة حتى يذهب العمال والحفارون قبله يمهدون الطرق حيث لم توجد سبل من قبل. وسار على هذا المنوال ابنه جهانگير وكان مولعا مثل والده بجمال كشمير. وحديقة شاليمار الشهيرة فى كشمير لا تزال ماثلة للعيان كقطعة من الجمال والمرح الازلى وتساهم فى مسرات آلاف الزوار كل عام وهكذا الحال بحديقة «نشاط» التى تصارعها جمالا. وهكذا كانت الرحلات إلى كشمير أمثلة على ذهاب الملوك المسلمين إلى مواطن الجمال فى الهند بينما كان إنشاء حديقة شاليمار فى لاهور يصور استدعاءهم لاحضار جمال كشمير إلى سهول الهند. والحديقة إلى يومنا هذا هى من أعظم مناظر لاهور، والمراحل التى قسمت إليها الحديقة فى سرى نگر (بكشمير) أمكن ذلك نظراً للموقع الطبيعى للمكان الذى اختيرت له. وقد كان ذلك على حافة جبل، والمياه تتدفق من السفح إلى الحديقة وتشبع تربتها. أما الارتفاع والانخفاض فى موقع فيسهل ان تعبر وجودها إلى تصميم الحديقة على مراحل وفى لاهور على أى حال قسمت الحديقة إلى ثلاث مراحل بالوسائل المصطنعة التى أضافت كثيراً إلى صعوبة المهمة. ولم يكن ثمة مياه يتيسر الحصول عليها قرب المكان الذى وقع الاختيار عليه، وهكذا حضر

الماء فى قناة اصطناعية ولكن حتى والحال كذلك فقد أمكن خلق جمال الحديقة فى كشمير وسحرها فى قلب البنجاب. وذكرت بصفة خاصة هذه الحدائق كى اصور أن حب الحدائق الذى أبداه كثير من ملوك المسلمين فى الهند كان له نفوذ ثقافى قيم، وترك أثرا مقيما على ذوق الطبقات الراقية الغنية فى الهند، سواء من الهندوس أو المسلمين. وهـذا الذوق كان له دافع آخر بظهور الانجليز الذين لم يتأخروا عن شعوب أخرى فى ولعهم بالحدائق.

وكان الامبراطور جهانگير مهتما بصفة ملحوظة فى فن البستنـة، وكان مغرما باكتساب المعرفة وجمع المعلومات حول الأشجار والنبات والأزهار. وكان جزء من لاهور المعروف باسم «بادامى باغ» مليئا بأشجار اللوز التى تمت زراعتها



تاج محل فى آگره

سنة ١٦٣٢ م.

هنـاك . ولقد رأيت فى مجموعة الرسوم الخاصـة كتابا قديما يحتوى على رسوم يدويـة لأوراق الأشجار والشجيرات المثمرة المحليـة وكذلك المستوردة فى عهـد جهانگير، وكما هو مرسوم بناء على طلبه.

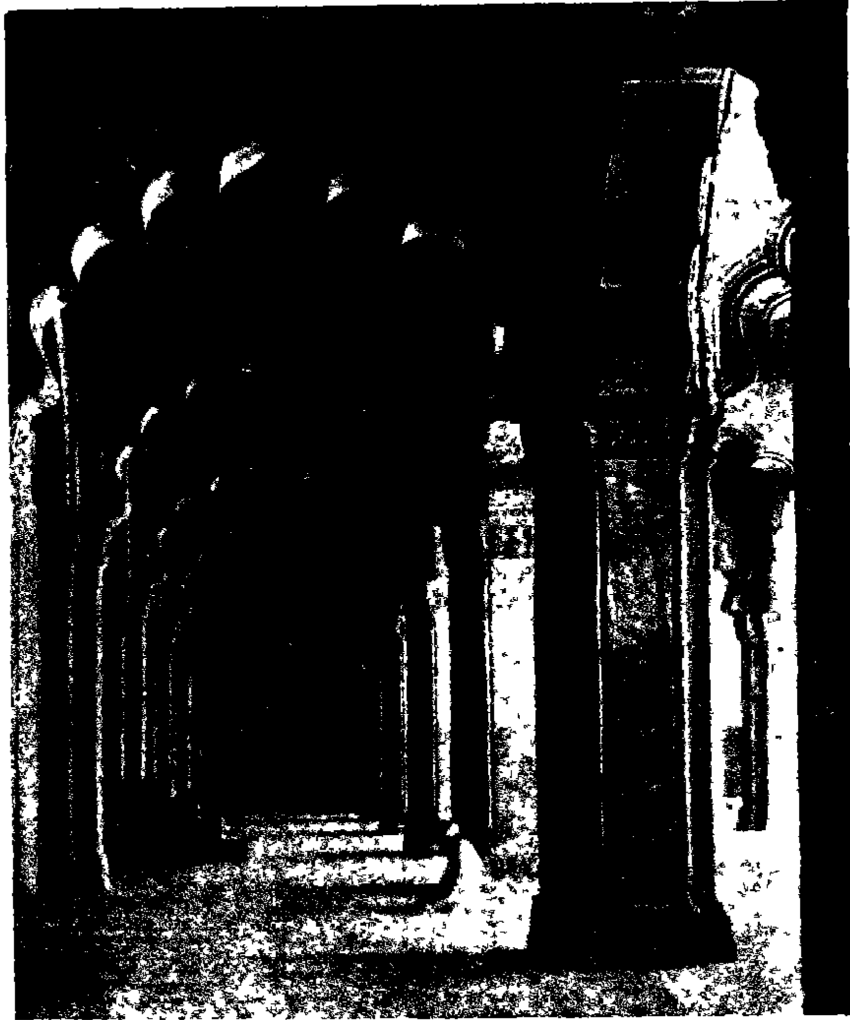
إن جمال حدائق المغول واتساقها وهدوءها بدون شك هزت خيال المؤرخين المعاصرين والمسافرين وكذلك الهنود التى انشئت بينهم. فقد هيأت معتقدا جديدا فى الحياة وأهدافها التى أثرت على الأدب فى الهند وفى أوربا على السواء. وهناك أشعار فى الأدب الهندى الفارسى وكذلك بالأردية، كانت بوحى من الحدائق فى كشمير ولاهور. وقد نظم الشاعر الهندى الشهير «إقبال» واسمه الكامل الدكتور سير محمد إقبال عدة قصائد بديعة بالفارسية استلهمها من زيارته إلى سرى نگر. فقد ارتجلت اميرة مغولية بيتين من الشعر المشهور عند مشاهدتها منظر الشلال الجميل الذى يزين وسط حديقة شاليمار فى لاهور. وكانت ترقب باعجاب لآلىء الماء الذى يتساقط على قطعة من الرخام مما افتعل شلالا، وكانت تصغى إلى الصوت الصادر عن سقوط الماء المصطنع عندما اسمعتها شفاها بما يلى: وهذه ترجمة لا تصور جمال المعنى الأصلى التى قيلت به هذه الكلمات

«أيها الشلال! من الذى تندب عيانه هكذا عاليا..
لم أحنيت رأسك حزنا وكمداً.
كم هو الألم حاداً ألمك طوال الليل
كنت نهب القلق مثلى تلطم رأسك
عرض الصخر وتذرف الدمع بغزارة!»

نظام الادارة

وقد عرضنا حتى الآن مسرات الحياة، ولكن المغول أحضروا كذلك أفكارا جديدة فى الادارة إلى الهند، وكثير منها مثل نظام دخل الأراضى قد دمجت

فى الحكومة المحلية لهذا البلد تحت الحكم البريطانى. ومع أن الكثير من إدارة المغول قد انهار قبل معركة «بلاسى» غير أنه بقيت مبادىء نظام البريد، والمسلمون عدوا الطرق، وشقوا قنوات الرى، وشجعوا إنشاء الحدائق من مياه الآبار، وملأوا البلاد بسرايات القوافل كما كانت تسمى، وبالطبع سهلوا للهنود والأوربيين السفر فى



موتى مسجد (مسجد لؤلؤ) فى آگره
سنة ١٦٥٣ م

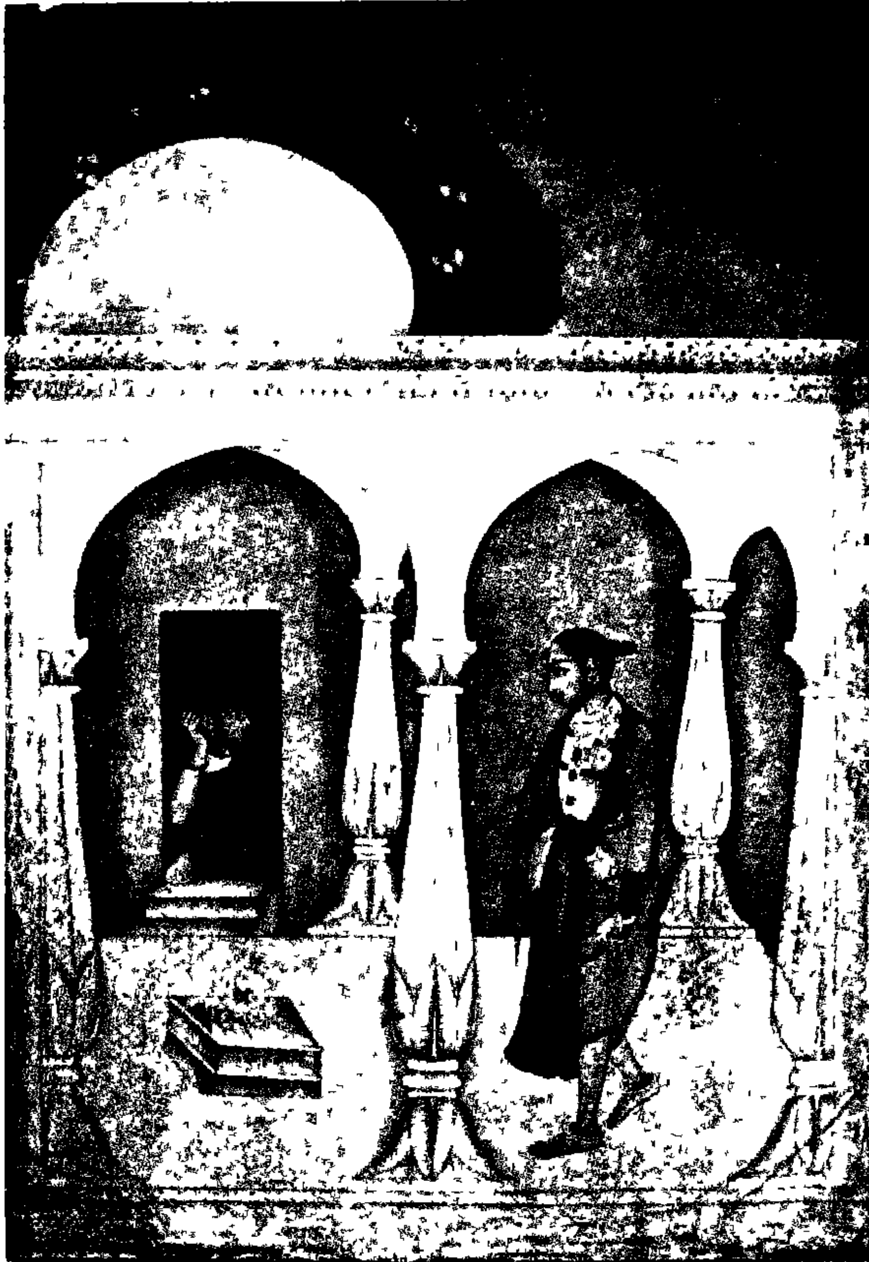
الهند. فأقاموا حكم القانون الذى كان من طرق كثيرة أكثر إنسانية من ذلك الحكم المعاصر المتبع فى أوربا. فإن حكم الاعدام الذى كان يفرض للسرقة فى انجلترة المعاصرة كان يحتفظ به تحت الادارة المغولية فى الهند لجرائم أخطر

بكثير. وهناك دليل كاف يظهر أن البعاليين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وجدوا قانون الجرائم الاسلامى أسهل بكثير على الفهم من القانون الملسق الدخيل الذى فرضته المحاكم العليا الانجليزية. وتصف فقرة مأثورة من ماكولى الآثار المدمرة من إدخال النظام الجديد وقد اعترف تماما بفضائل القانون الاسلامى الاداريون المستعمرون فى أفريقيا.

ويتبادر إلى الأذهان سؤال عن كيفية بدء المغول وإلى أى مدى كان مجرد اقتباسهم المراسيم القضائيـــة وطريقـة السلوك التى أدهشت كثيرين من الرحالة. ومن ملتون إلى من جاءوا بعده هناك عدد من لا حصر له من الاشارات إلى هـذه الناحية من حضارة المغول. وفى الامكان أن المغول مثل الانجليز الذين أتوا بعـدهم اعتقدوا بالأثر السيكولوجى لهذه الأبهة على العقل الشعبى. وربما يكون مثار الشك أن هـذا المظهر المـدهش للثروة والسلطان كان فى الواقع يجر إلى أى تطور فى المستقبل، ولا بد أن أقول على أى حال أن لهذه المظـاهر سيطرة لا تقاوم عـــلى أخيلة الناس، وحتى البلدان التى ترهو بأسمى الحضارات الحديثة لا يمكنها الاستغناء عنه والمظهر الغريب للالاط فى الهند هو أن الشعراء اعتادوا أن يأتوا ويلقوا القصائد والأقوال فى مدح الحكام الذين يترأسون الحفل واعتادوا أن يكافأوا عـلى ذلك. وهـــذه العادة لم تنس حتى الآن ولا تزال سائدة فى الامارات الهندية، وإلى حد أقل بقيت فى المنطقة البريطانية حيث كانت القصائد تلقى أحيانا تكريما للحكام ونواب الملك. وهذه القصائد لم تكن كلها من الطراز الأول من وجهة النظر الأدبيـــة ولكن هناك أمثلة من القصائد ذات القيمة الأدبية الحقيقية القيمة فى مناسبات كهذه.

المكاتب

ان المكتبات التى وجدت فى الهند نتيجة لحب العلوم لدى الـكثيرين من



منظر منزلى : للفنان محمد فقير الله خان
المدرسة المغولية فى القرن السابع عشر

حكام المسلمين كان لها تأثير عظيم على الثقافة الهندية . ولم يكن فقط الملوك والأمراء الذين جمعوا خزائن غنية من الأدب لمتعتهم بل النبلاء من كافة الطبقات تنافسوا فى اقتناء هــذه النفائس ومن بين ملوك المغول كان همايون شغوفا بكتبه والمبانى التى ضمت مكاتبه لا تزال ماثلة فى دلهى . ومن إعتابها الضيقة

سقط همايون وفارق الحياة. ومن بين أمراء المغول كان دارا شكوه أكبر أبناء شاهجهان اميراً أديبا واسع الأفق، وكان مؤلعا كثيراً بالكتب، فترك خلفه مكتبة عظيمة حمد باؤها زمنا طويلا، ولا يزال موقعها يشار إليه بالبنان. إن الدمار الذى اعقب الفترة المريعة لعصيان عام ١٨٥٧ م. جرف معظم هذه الخزائن من الأدب. وربما لا تزال دخائر قليلة خاصة من ذلك العهد موجودة لدى بعض الأسر العريقة فى الهند أو فى الامارات الهندية، ولكن آلاف الكتب القيمة ضاعت أو دمرت أو بيعت بثمن بخس من قبل أولئك الذين نهبوها. وقد وصل عدد كبير منها إلى الغرب وهى محفوظة لحسن الحظ فى مكتبات أوربا. ومن بينها يمكن العثور على مخطوطات تحمل أختام أو تواقيع الملوك المسلمين والسلاطين الذين ملكوها وهى تحمل شهادة صامتة، ولكنها بليغة على ثقافة الأيام الخوالى حين تحمل صبر الانسان مشقة عظمى فى حفظ خير أفكار رجال العلم القدامى للسلف فى وقت لم توجد فيه الوسائل الحديثة لنشر الأدب والاكثار من الكتب

